لبنان
من رياض ن. الريس

اغتال النفاق كل شيء . واحتمى الارهاب في كنفه ، وتعلق المثقفون والادباء باهدابه ، وقضت السياسة على البقية الباقية من المواهب الواعدة ، ولم يعد من الممكن اراقة ماء الوجه اكثر من هذا .

واصبح الانسان المثقف ، والكاتب الموهوب ، والرجل الخلاق ، والفنان الاصيل ، غريبا عن اورشليم . وانهارت جدران اورشليم كما انهارت جدران اريحا . ولم يعد الدخول الى ملكوت الادب يحتاج الى اكثر من صك غفران من وزير او مدير بنك او محرر في جريدة . فالوزير يقدم الدعم الرسمي، والمدير الدعم المادي، والمحرر الدعم الدعائي الصحفي. فنجد ان ماسونيي الادب قد احاطوه من كل جانب ، وعزفت الابواق في حفلات الكوكتيل والندوات ، وقرأت معلقات المديح ، والصقت الصور في الصحف ، ومنحت الجوائز : للاقل موهبة ، والاقل اصالة ، والاقل خبرة ، والاقل جرأة ، انما الاكثر نفاقا ، والاسمك جلدا ، والاكبر امكانية في اراقة ماء الوجه . ولم تعد جدران اريحا تحتاج الى من يدور حولها سبع مرات او سبعة ايام او سبع سنوات لتنهار . فالرب لم يعد معنا ، واورشليم لم تعد اورشليم .

ومتى كان الرب مع الادب والفكر والثقافة عندنا ؟ بل متى كانت مؤسساتنا ، من دولة وبنوك وصحافة ، مع ما نتبجح به باستمرار، بل ما عندنا فعلا من غنى ثقافي تراكم عبر تيارات التاريخ ؟ بل متى كان تلامذة الرب — القراء — شاعرين بالازمة، عارفين الفرق بين الحنطة والزوان ؟

عهد الاقنعة يجب ان ينتهي ، ولا بد من ان تسيل بعض الدماء. لذلك ليس هناك مجال للاعتذار، لا قبل ولا بعد . فهذه المرة لن ادعي — كالمرة الماضية التي كتبت فيها « رسالة لبنان » (« حوار» ٩) — بانني محامي الشيطان ، وظفتني الكنيسة عندها . فالشيطان نفسه اليوم قد هرب من اورشليم .

« ليس عندنا نقد ، كل النقاد مزيفون » . هذه هي التهمة .

وهل عندنا ادب ؟ هذا هو السؤال .

كل ادبنا دعي وامي وجاهل وسطحي. كل ثقافتنا فتات من هنا وهناك . معلومات سطحية تجمع من بقايا موائد المقاهي ، يجترها انصاف المثقفين ، ويتبجح بها الاميون . وكتابنا جماعة من المغرورين، يكاد سحر الاسم المطبوع يقضي على القليل الذي عندهم من امكانات. فايهم يتقبل النقد ؟ بل من منهم اذا لم تحمل الصحف اليه المباخر ، يقبل ان يقال عن نتاجه بانه عادي او انه لم يشل الزير من البير ، او انه (من قبيل التشجيع) يعد بالخير ، اذا ... و« اذا » هذه تعني انه يجب ان يتطور ويعمل بجهد اكثر ، وان يكون اكثر ثقافة وتجربة ونضجا . واذا تجرأ ناقد من النقاد ، على قلتهم ، واستعمل مقاييس النقد الصحيحة ، فقيم الامور كما يجب ان تقيم ، اتهم بانه كاتب فاشل تحول الى ناقد .

القضية لم تعد قضية نقد ، بقدر ما هي قضية نتاج يفتقر الى تقييم صحيح . ليس عندنا نقاد متفرغون ؟ ولكن ، نكاد نقول ، اين النقاد المتفرغون في العالم كله ؟ الناقد الكبير اليوم ، والمحسوب على التفرغ ، هو الكاتب او الصحفي او الجامعي او المدرس الذي يعمل في النقد . فالنقد لا يعيش وحده ، ولا يعيش على انتاج هزيل كانتاجنا .

ومجال النشر ، على تضارب ومختلف مستوياته،

فسيح لاستيعاب مختلف المحاولات والتجارب ، مهما بلغت من التطرف او الطرافة او البعد عن سطحية الجماهير وعقلية الصحافة السيارة .

فلبنان ، الذي يوجد فيه اكبر عدد من الصحف والمجلات ووسائل النشر والطباعة في العالم العربي كله ، نجد انه يفتقر في مستواه ومحتواه الى المستوى الثقافي والفني الذي يرجى من هذا الفيض والزخم كله ، بل الى ما يمكن ان يخلقه وضع كهذا، من تيارات تعود على حركة الثقافة والفكر بالخير . ما زال النفاق سيد الموقف ، وما زال الدجل كمغارة علي بابا ، يفتح ويغلق الابواب بكلمة السحر .

ولعل النشاط الثقافي الذي عرفه لبنان خلال موسم الصيف ، على تباينه واتساع مجالاته ، فيه دليل على ان القضية ما عادت قضية ثقافة او سمعة او مستوى، بقدر ما هي قضية « علاقات عامة » بالدرجة الاولى ؛ وهنا تفتح وتغلق مغارة علي بابا من جديد .

الموسم كان موسم مهرجانات بالطبع . ولعل مهرجانات بعلبك هي الاشهر والاقدم وصاحبة الباع الاطول في الفن — وفي العلاقات العامة . فقد كان ما استورد من فن من الخارج هو ما يفتقره لبنان ، لبنانيا وعربيا ، من فن وثقافة . فكانت الكوميدي فرانسيز ، وكانت الرويال باليه ، وكانت السمفونية الامريكية، وكان الكورال النمساوي . جاءت كل هذه الفرق كنوع من تذكير اللبنانيين ، اكثر من التعويض عليهم ، بما ينقص بلادهم في مجالات الفن الحقيقي ، على الرغم من ان هذه الفرق لم تعط ولم تأت باحسن ما عندها ، بل وما يتفق وسمعتها في بلدانها الاصلية .

اما عندما قدمت مهرجانات بعلبك فنا محليا فقد تبدى النقص الثقافي هنا اكثر واكثر — ان كان هذا المستوى هو الذي يمثل ثقافتنا حقاً . حفلات الفوكلور اللبناني التي كانت صباح بطلتها ، مع وديع الصافي وفرقة الانوار وفرقة مهرجانات بعلبك ، كانت هزيمة فظيعة لاصول الفوكلور وذكراه ، ولتراث الفن الشعبي اللبناني الحقيقي . الاوبريت الغنائية ليست اوبريت ، والشعر الغنائي ليس غنائيا ، ومحتواه ليس اكثر من غلاظات تجمعت في الفاظ ، ما ابعد اهل القرية الحقيقيين عنها . والرقصات ، اختلط فيها الايقاع الروسي ، والاسلوب الارمني ، واللفتة القوقازية ، تشاركها موسيقى لم تعد معروفة الهوية ، حتى حملت كل الصفات الا الصفة اللبنانية الاصلية . هل استنفد الفوكلور ؟ ربما . انما ما قدم في بعلبك ليس فوكلورا .

وجاءت مسرحية« الازميل » لانطوان معلوف، الذي نال لثلاث سنوات متتالية جائزة جمعية اصدقاء الكتاب للمسرحية ، دليلا آخر على اننا ما زلنا في عصر مسرح يوسف وهبي في الثلاثينات ، وان ما قدمه منير ابو الدبس في بعلبك لم يكن الا تكرارا مأساويا للدراما التقليدية . فالمسرحية اصلا لا تصلح للتمثيل ولا تصلح لبعلبك ، فضلا عن نفور الجمهور التقليدي من المأساة المسرحية المفتعلة .

طبعا لم يتصد لهذه المهرجانات بالتقييم الفني الصحيح ، الا القلة من الكتاب الذين عرفوا المسرح الحقيقي وعرفوا اصوله . اما الباقون فاكتفوا بمبدأ العلاقات العامة في مغارة علي بابا .

وكانت فيروز والرحبانيان في الارز مع « بياع الخواتم » ، اهم جزء في موسم المهرجانات . وفيروز هي فيروز ، اي الضمانة اللبنانية الفنية الوحيدة . غير ان فيروز لم تعد وحدها تكفي . اكل البرد ووعورة الطريق وصعوبة الوصول الى الاحتفال نصف اعصاب الجماهير ، وبقي النصف الآخر موزعا بين الاعجاب بفيروز والرحبانيين ، وبين الاشفاق من ان الفوكلوز اللبناني قد توقف هنا وانتهى . فالشعور بكسر الطوق قد بلغ مداه ، ولم يعد هناك مجال للاجترار بعد اليوم .

وجاءت اهدن ، لتكون المركز الثالث لمهرجانات المسرح هذا الصيف. وكان «عرس الدم» للوركا تقليديا وبعيدا عن روح لوركا الاصلية . اما راشانا ، فلعل ما حصل فيها كان احسن ما حصل للمسرح المستجد في لبنان . فقد كانت « كوميديا الاخطاء » ، في اطارها الشرقي ، جيدة التمثيل وجيدة التفاعل مع الجمهور ، ربما لان جمهور المسرح في لبنان ما زال اميل الى

الكوميديا منه الى المأساة، وربما لان الترجمة الضائعة بين الفصحى المحكية والعامية المكتوبة التي قام بها انسي الحاج لشيكسبير قد اكسبت هذه المسرحية الكثير من الحيوية ؛ بل لعلها اكدت عناصر نجاحها ، بقدر ما اكسبته مزيدا من العداء من قبل المتطرفين من انصار الفصحى ومن انصار العامية.

غير ان المسرح لم يكن كل شيء . فقد سبقه محاولة عرض فيلم سينمائي ، هو « الاجنحة المتكسرة » لجبران ، كان عبارة عن فضيحة مأساوية . فضيحة لان اصحاب الفيلم لم يتورعوا عن عرضه ، وفضيحة لان الممثلين الذين اشتركوا فيه قد انتحروا ، ومنهم من كان يعد بالكثير . ولعله ليس من الضروري ان يطيل المرء الحديث عن هذا الفيلم ، لولا انه جاء يدعي تمثيل صناعة السينما اللبنانية ، ولولا حزننا على قصة جبران وامكانات نضال الاشقر ، بطلة الفيلم .

لقد تخلل عرض هذه المشاهد الثقافية ، بالطبع، الشريط الدائم للحياة الفكرية في لبنان . وسائل النشر ما زالت تعيش في فوضاها المعتادة. الصحافة ما زالت مهنة عاجزة عن ان ترفع من مستوى المحرر العامل ، وان تستقطب القلم النظيف الخلاق . لم تتحول الصحافة الى صناعة ، الا في المجال الآلي ، حيث اصبحت الطباعة عملا تقنيا دقيقا. اما المستوى ؛ واما المضمون ، فحدث ولا حرج . ودور النشر ، ما زالت دورا للتجارة بالورق المطبوع ، وما زالت تتخبط في فوضاها وعجزها المالي عن ان تكافيء المؤلف وان تتوسع في خدمته . اما المعارض ففي الصيف ، كما يبدو ، يستريح الفنان بانتظار الخريف ، ويستلقي متطلعا الى الجدران الفارغة حوله في الفنادق والمقاهي وبعض الاماكن القليلة جدا المهيئة للعرض . اما من هو الفنان صاحب الحظ الاوفر في احتلال هذه الجدران ، فذلك ايضا من سحر المغارة .

غير ان الدليل الاهم عن تخلي الرب عن اورشليم ، يتجلى في ظاهرة ، لم تعد ظاهرة ، هي اسلوب الارهاب الفكري الذي يعاني منه المثقف والاديب ، عن طريق المزايدة في المواقف الاكثر عربية او الاكثر لبنانية ، وليس الاكثر صدقا او حقيقة.

والارهاب هذا ، بالرغم من شيء اسمه مواطنية الانسان في الدولة وحقه في التعبير عن رأيه ، قد اصبح يتعدى على بديهيات التسليم بابسط قواعد الحرية الفكرية . الاديب صاحب النفوذ ، ومالك القلم الثري ، والكاتبة الاكثر اغراء (ليس الاكثر جمالا – ولا داعي ان نقول موهبة) ، هم اليوم اسياد الموقف .

في الصيف كله لم يصدر كتاب واحد يستطيع الناقد ان يشير اليه ، او يحمله بفخر . وفي الصيف كله كانت « البوار » هي الكلمة السائدة . كأن المواهب قد فرغت ، او ان الناس قد ناموا خارج اسوار اورشليم . ولعله اتى مع البوار جوّ من الحزن والخيبة . لقد اصيب الفن الادبي بالمحل . لم يعد الشعر سيد الكلمة ، فمجلة « شعر » قد ماتت ، ويوسف الخال يعد جنازتها في عدد اخير . لم تعد الرواية هدف الخلق المركب الاسمى ، ولم تعد القصة القصيرة حقلا للتجارب الناضجة الغريبة . لقد عم الجفاف .

ومع الجفاف انتحر الفنان المغامر ، صاحب التجربة الاصيلة . لقد انقى بنفسه من الطابق العاشر لعمارة شركة للعلاقات العامة . ولم يلمه عابر سبيل من مقهى مجاور . حتى السامري قد اختفى .

واليوم لو قتل عشرة ادباء حقيقيين في لبنان (وهذا رقم مبالغ فيه) لما سالت نقطة دم واحدة، ولما تحرك وزير او مدير او زميل من كرسيه . رياح البوار اقوى ، وجفاف الخماسين اقسى، وسحر المغارة ابقى واجدى .

واصبحت اورشليم اكوام آثار ، ولم يعد ملكوت الادب فيها يستحق صك غفران ناصع البياض. فقد كثرت الاجساد السميكة ، ولم يعد ممكنا لمياه الوجوه ان تراق اكثر . وتحول الرب الى دليل سياحي .

ومن آمن به ، ومات ، فسيحيا !